مجلـة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 3 / العـدد: 02 (2015)، ص 23 - 29

مواجهة العولمة بين الفلسفة والعلم

الأستاذ : عبد الرحمن بن شريط
جامعة زيان عاشور بالجلفة- الجزائر

مقدمة:

يعتبر الفكر الفلسفي عبر التاريخ مقارنة بالعلم التجربة الأكثر تعبيرا عن الوجود الإنساني والأصدق في ترجمة أفكاره ، وذلك بغض النظر عن نجاحه في الوصول للحقيقة أو مجانبته لها ، فمعاني الدهشة والانبهار أمام الطبيعة كانت المادة الأولى للتأمل الفلسفي ، كما شكلت ميدانا واسعا لتلاقح الأفكار وتباين المواقف ، إنها تجربة الاختلاف بكل ما تحمله من معاني التنافس الفكري النزيه بين الذات والآخر تارة وبين الذات و وذاتها تارة أخرى . إلا ان طريق الفلسفة لم يكن دائما مسلكا سهلا بل كان محفوفا بالعديد من المصاعب والأشواك ، فماهي العراقيل التي واجهت الفلسفة ؟ وكيف تمكنت من تجاوزها وهل استطاعت العولمة أن تقف سدا منيعا أمامها وهل تمكنت من توظيف العلم لمجابهت الفلسفة ؟ كل هذه التساؤلات جديرة بالطرح ، وجديرة بالنقاش ، خاصة في عصرنا الحالي الذي هبت فيه رياح العولمة بكل عنف محاولة اقتلاع العديد من المبادئ والقناعات التي اجتهد الفكر الحر في بلورتها والحفاظ عليها ، وما أعرضه في هذا الموضوع هو محاولة لاستعراض إنجازات الفلسفة التي حققتها في مسيرتها الطويلة ، والتحدي الخطير الذى يشكله الفكر العولمي في وجهها.

فلم ينتظر الإنسان نضوج أدواته المنهجية علميا لكي يدخل في استكشاف لقدراته العقلية من خلال استكشاف الوجود الذي هو جزء منه ، لقد

استمد من نفسه كل الطاقة التي يحتاج إليها والمتوفرة لديه لكي يخوض عباب المعرفة وليدخل في مغامرة لم يكن وقتذاك يعرف مداها ، ولا يقدر عظمتها وما تحمله من معاني الإثارة والتحدي ، لقد أدرك بأنه لا يوجد سواه ليقوم بهذه المهمة ويضطلع بهذه المسؤولية . إنها مسؤولية فهم العالم وتفسيره ليصبح بالنسبة له محيطا أكثر وضوحا وأفضل معيشة . لقد أصبح هذا العالم بالنسبة له ورشة فكرية ضخمة تستفز عقله في كل تفاصيلها وتستثير مشاعره في مختلف مكوناتها ، "أنها معرفة الوجود بما هو موجود" كما أشار إلى ذلك أرسطو.

و إذا كانت الفلسفة اليونانية تشكل النموذج الرائد في تجسيد هذه التجربة الإنسانية العظيمة ، فإن ذلك لا يعني أنها كانت الأولى والسباقة فقط بل كانت الأعمق والأكثر نضجا ممن سبقها في تجسيد الحرية الفكرية بكل ما تحمله هذه الدلالة من معنى ، ولعل هذا ما يفسر تخليد تاريخ الفلسفة لأسماء فلاسفتها إلى حد الآن باعتبارهم نماذج إنسانية خاضت تجربة الحرية الفكرية في أصدق صورها بل ودفع أستاذهم "سقراط" بنفسه قربانا على مذبحها . إنها التضحية دفاعا عن الحقيقة والاستماتة دفاعا عن الفكرة في أصدق صورها ، والتي لا تختلف كثيرا عن مواقف الأنبياء والرسل في الدفاع عن هدايات السماء التي حملوا مسؤولية تبليغها إلى الناس .

ولعل هذا ما يدفعنا إلى اعتبار الفكر الفلسفي في الإسلام استمرارية ضرورية للفلسفة اليونانية من حيث كونه جسد رغبة المسلمين في الانفتاح على تجارب الأمم استجابة للتعاليم الإنسانية للدين الجديد التي تدعوا إلى التعارف بين الشعوب والقبائل " جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " كما أنه أثبت بان التباين الثقافي لم يمنع الفلسفة من اختراق العديد من الحواجز

لتؤكد قدرتها الهائلة على جمع الأفكار وتوحيد الرؤى وتوفير مناخات الجدل والحوار الفكري الراقي الذي يسموا فوق الخلافات العرقية والجغرافية ، وها هو الفارابي معلما ثانيا إجلالا وتقديرا لمكانة أرسطو المعلم الأول . وها هو ابن سينا يعيد بعث أفلاطون من جديد . وبالرغم من الإجحاف الكبير الذي تعرضت له الفلسفة الإسلامية من طرف بعض الغلاة الذين صعب عليهم الاعتراف بفضلها في تنوير أوروبا وإخراجها من القرون الوسطى المظلمة واعتبارها مجرد ناقلة ومترجمة للفكر اليوناني دون تمييز أو إضافة ، فإن العديد من المنصفين من بني جلدتهم عبروا عن إعجابهم وانبهارهم بأعمال فلاسفة الإسلام أمثال ابن رشد الذي كانت الرشدية الجديدة همزة الوصل تاريخيا ومعرفيا في بعث أوروبا الجديدة التي تمكنت بفضله من تحقيق نقلة نوعية سمحت لها بالتخلص من هيمنة الكنيسة وغطرسة الملكية . إن هذه القدرة العجيبة في انتشار مبادئ الفلسفة الإسلامية في صميم أوروبا لهو دليل على عظمة الفلسفة التي وجدت قابلية كبيرة في فك رموز ومغاليق هذه القارة العجوز التي لطالما عانت من طغيان الفكر العدمي الذي يلخص كل المعرفة في الكتاب المقدس ويتهم كل مخالف له "بالهرطقة" ليكون مصيره الحرق بنيران تؤججها أوراق الكتب التي ألفها وضمنها خلاصة عقله الحر وعصارة فكره الذي يصبو إلى الحرية و الانعتاق.

إن المتتبع لمسيرة الفكر الفلسفي يصل إلى حقيقة واضحة تتمثل في قدرتها على إعادة النظر في العديد من القناعات الجاهزة والأفكار القطعية التي لطالما كبلت العقل البشري ومنعته من تحقيق الوثبات التي تتيح له القدرة في الإبداع ، ولهذا كان قدر الفلسفة الدخول في مواجهات مصيرية قادتها ضمائر حية كانت جولتها الأولى التخلص من **السفسطة** التي اعتبرت

الإنسان كفرد معيار كل شيء ، وكانت جولتها الثانية هو مواجهة **الشكاك** الذين نفوا وجود حقيقة مطلقة واعتبروا الحقيقة نسبية تختلف من شخص لآخر ثم كان على الفلسفة أن تتكيف مع **الدين** خاصة الإسلام الذي اعتبره البعض مناقضا للفلسفة فكان على ابن رشد وغيره من الفلاسفة إثبات المنطلقات المشتركة بين الحكمة والشريعة وما بينهما من اتصال ، ثم كان على الفلسفة الحفاظ على مكانتها أمام النتائج الباهرة **للعلم** وما حققه من تطبيقات مفيدة مما جعل البعض يقلل من شأنها ويعتبر بان العلم هو المفتاح السحري لكل المشكلات التي تواجه الإنسان ، فالوضعية الكلاسيكية والوضعية المنطقية شكلتا تباعا تهديدا حقيقيا للفلسفة من خلال رفض فرع هام من الفلسفة والمتمثل في الميتافيزيقا . كما تعتبر **الماركسية** محاولة من نوع آخر في التهجم على الفلسفة حيث اعتبرها ماركس مجرد أفكار نظرية لا تملك القدرة على تغيير العالم " إن الفلاسفة لم يعملوا لحد الآن إلا على تفسير العالم بأشكال مختلفة ولقد حان وقت تغييره".

كل هذه التحديات والعراقيل لم تزد الفلسفة إلا إصرارا على المضي قدما في مسيرتها التنويرية على مر العصور فاتحة المجال للإنسان من التعبير عن آراءه ومواقفه بكل حرية ومسؤولية وكانت كل المحاولات الساعية إلى إعاقتها إنما تضاف إلى الفلسفة ذاتها وتشكل رافدا آخر من روافدها " فكل محاولة للقضاء على الفلسفة تحتاج إلى فلسفة " إنها عظمة الفلسفة في أرقى تجلياتها عندما يتسع صدرها ليتقبل النقد لأنها بكل بساطة مدرسة النقد ومصدره .

إلا أن التحدي الجديد الذي يواجه الفلسفة يعتبر نموذجا جديدا لم يسبق لها التعامل معه من قبل إنها **العولمة** ، والمتمثلة في محاولة تكريس

النموذج الليبرالي بهدف السيطرة المطلقة على العالم ، والتي لم تكن لتصل إلى ماوصلت إليه لولا التطورات الهامة التي حققها العلم التجريبي في مختلف المجالات ، إلا أن العلم لا يملك الأدوات التي تسمح له من التعامل مع العولمة بصورة نقدية فهو بالرغم من صنعه للأدوات التي توظفها العولمة والمتمثلة في الوسائل المباشرة التي كانت وراء ثورة تكنولوجيا الإتصال إلا أنه يقف عاجزا عن توجيه العولمة حسب منظومة قيمية تضع نصب عينيها المشروع الإنساني الذي خططت له مرحلة الحداثة بكاملها ، ولعل هذا ما جعل فيلسوفا مثل مارتن هايدغر يقول " إن العلم لا يفكر" (سبيلا ، م 2006 :67) مما أثار ظلالا من الشكوك حول العلم الذي أصبح في العصور الحديثة النموذج الأسمى للتفكير الإنساني بل ومرادفا للحقيقة ، ويقصد هايدغر من حكمه هذا أن العلم يختلف اختلافا نوعيا عن الفلسفة لأن كل فروعه لم تتمكن من معرفة ماهية الظواهر التي تتعامل معها ولكنها تكتفي في التعامل في ذلك بجملة من التعاريف الإجرائية التي يعتمد عليها لأغراض تجريبية محضة فحقيقة المادة لاتزال مجهولة في فروعه المكونة له ، وإذا كان العلم عاجزا عن ضبط طبيعة المادة التي يتعامل معها فكيف يمكنه معرفة النتائج العملية التي تترتب عن أبحاثه ، والتي تعتبر العولمة واحدة من هذه النتائج فلولا التطور التكنولوجي لما استطاعت الدول العظمى من بسط نفوذها العسكرية والاقتصادية والفكرية على العالم بأكمله وعلى حد قول ماركس بأن " الأفكار السائدة هي أفكار الطبقة السائدة" (العبادي .ع 2008 :14) فإن الدول المصنعة هي التي أصبحت ترسم معالم العلاقات الدولية في عصر العولمة ، وبهذا فهي تتعامل مع العلم كوسيلة وتسعى إلى تسخيره لأغراض لا يدركها العالم و لاينتبه إلى أبعادها الأيديولوجية ، لإن العلم لا

يعي مصادراته الفلسفية وصورة العالم الكامنة فيه ، ونموذج إرادة القوة المتحكمة فيه ، ولايعي القوى الدافعة له و لا القيم الأخلاقية والاجتماعية والسلطوية المضمرة فيه ومن خلال العلاقة التي يرتبط بها العلم بالطبيعة باعتباره وسيلة تحكم وسيطرة وتسخير للطاقات الكامنة في مختلف ظواهرها تولدت الفكرة العولمية المتغطرسة في تعاملها مع بقية الشعوب ، فالذي يملك وسيلة العلم القوية هو الذي يملك الحق في إذلال الشعوب والاستحواذ على ثرواتها التي تعجز هي على استغلالها لفقدانها هذه الوسيلة ، بل و التي لاينبغي لها التمكن منها ، مما يترتب عنه ممارسة سياسة التجهيل بشكل يختلف عن الأسلوب الاستعماري القديم ولكن لا يقل عنه فعالية ووحشية ، وأمام هذه الوضعية تتجه الحاجة إلى استنهاض الفلسفة في مواجهة العولمة باعتبارها الملجأ الذي لا بديل عنه في كشف حيل العولمة التي تمكنت من تدجين العلم وتوظيفه لمشاريعها تحت سيطرة المال والنفوذ وذلك نظرا للحاجة الملحة التي تربط العلم في إطار التكنولوجيا بضرورة ضمان الميزانيات الضخمة التي أصبحت البحوث العلمية في حاجة ماسة لها في حين يبقى الفيلسوف بوسائله العصامية أكثر تحررا من رأس المال المالي الذي تضخه العولمة في مراكز البحث عبر العالم . فالعلم لا يفكر (تفكيرا فلسفيا) لأنه لا يفكر تفكيرا أخلاقيا ، فالمقاصد الروحية والغايات الأخلاقية لا تدخل في صلب مشاغل العلم واهتماماته ، وذلك ابتداء من منطلقاته المنهجية ذاتها ، ومن فصله منذ البداية بين حكم الواقع وحكم القيمة وبين القبليات والبعديات ، وبحكم استبعاده لأي منظور غائي . العلم في عمقه بحثي وكشفي ووصفي وتشريحي ، أما القيم الإيديولوجية والقيم الميتافيزيقية فهذه مجالات قيم ومعيار لا تدخل في صلب اهتمام العلم بمعناه الحديث.

كما أن العلوم الإنسانية بدورها متأثرة بالعلوم التجريبية ساهمت بشكل كبير في تكريس المفاهيم العولمية من خلال تبني أساليب منهجية أقرب إلى العلم منها إلى الفلسفة ، وهذا ما يعبر عنه (كلود ليفي ستروس) عندما يعتبر بأن العلوم الإنسانية تستطيع معرفة الإنسان دون الحاجة إلى العنصر الإنساني الذي هو الذات ، فالمحدد الأساسي هو البنيات ، أما الذوات البشرية فهي أشبه ما يكون بالقشة في مهب رياح التحديد والحتمية ، فالموضوع الخارجي هو الذي يحدد الذات ويتحكم فيها . وقد سرت هذه الفكرة في كل العلوم الإنسانية المتأثرة بالبنيوية سريان النار في الهشيم ، مما ترتب عنه تكريس فكرة (النهايات) : نهاية التاريخ ، نهاية الإنسان ،نهاية الميتافيزيقا ، نهاية الفلسفة ، نهاية الأيديولوجيا ، نهاية الحداثة ... كل هذه النهايات التي رسمتها النزعات الوضعية التي سادت العلوم الإنسانية إنما هي محاولة للقضاء على كل المفاهيم القيمية والمعيارية التي تشكل صلب الفكر الفلسفي باعتباره موقفا نقديا يركز على أهمية المعاني الإنسانية والأخلاقية في حياة الفرد والمجتمع.

إن المراهنة التامة على العلم والنزعة العلمية في المجالين الطبيعي والاجتماعي يشكل أكبر استخفاف بالإنسان والمعاني الإنسانية إنه اختزال للوجود الإنساني في المستوى المادي ، إنه التعامل مع الإنسان باعتباره مستهلكا و مع العالم باعتباره سوقا كبيرة للبضائع التي تنتجها الدول المتقدمة ، كما تعتبر حملة شرسة ضد المقدس باعتباره عائقا أمام انصهار الشعوب في بوتقة واحدة لادينية وملحدة ، وهذا ما يفسر التوجه الكبير في مجال الدراسات البيولوجية إلى مسائل الاستنساخ وتطوير الدراسات حول الشفرة الوراثية وتشجيع الأبحاث حول الزراعة المعدلة جينيا ، وهذا لكون

الإنسان بالنسبة لأنصار النزعة العولمية ليس أكثر من كائن عضوي يجب عليه إشباع حاجياته البيولوجية دون قيود أو ضوابط وهذا ما فتح الباب على مصراعيه في توفير كل مستلزمات المتع المادية والمستحضرات التي تخدم الجسد على حساب الروح ، أي على حساب الإنسان الذي احتفلت العولمة بنهايته ، فالعلوم الإنسانية التي أدى تطورها إلى ظهور العديد من النظريات والمناهج التي اجتهدت في التنصل من الإرث الفلسفي القديم الذي خلفته الفلسفة الحديثة والذي رفع من قيمة الإنسان العقلية ومجد معاني الوعي والتحرر والمسؤولية والأخلاق كما فعل ديكارت عندما قال : " العقل هو أعدل الأشياء توزيعا بين الناس " le bon sens est la chose du monde la mieux partagee (Descartes R .1973:29) ، مما ترتب عنه اعتبار الإنسان كائنا لا واعيا يخضع للكبت النفسي وتتحكم فيه قوى لا شعورية أبرَزَها التحليل النفسي إلى الوجود ، فهو كائن تداهمه الرغبة ويراوده الخيال ، محدود الفعالية مشروط الإرادة ، كما أن السلوكية وإمعانا منها في التبجح بالنزعة العلمية ، لم تدرك الفروق الهائلة بين الإنسان والحيوان وذلك في دراستها للسلوك البشري انطلاقا من نتائج أبحاثها على السلوك الحيواني. فلم يتردد أنصار العولمة في استغلال هذه الفرصة وذلك في مجال التسويق باعتماد (قوانين) علم النفس السلوكي في تصميم الومضات الإشهارية لإسالة لعاب المدمنين على البرامج التلفزيونية كما فعل (بافلوف) في إسالة لعاب كلبه الشهير. يقول محمد سبيلا في كتابه زمن العولمة " إن الدموع والدماء والآلام المسوقة إعلاميا على نطاق واسع ، هي من جهة استجابة لطبيعة بشرية ينكشف بالتدريج بعدها العضوي البهيمي ليسيطر على بعدها الروحي والأخلاقي " (سبيلا ، م 2006 :67) . كما أن العولمة وجدت في العديد من

النظريات في مجال علم الاجتماع تربة صالحة للنمو والازدهار فعندما يصر دوركهايم على تشييء الظاهرة الاجتماعية فإنه بذلك يفرغها من محتواها الإنساني ويتعامل معها باعتبارها ظاهرة طبيعية حرصا منه على توخي الموضوعية كما يزعم ، ومن هنا قوله "يجب أن يضع عالم الاجتماع نفسه في وضع فكري شبيه بالوضع الذي يكون عليه الفيزيائيون و الكيميائيون و الفيزيولوجيون حينما ينخرطون في استكشاف منطقة مجهولة عن ميدانهم العلمي " وفي هذا الكلام انكار مجحف لتميز الإنسان بمعاني العقل والإرادة والخيال ، وتشويه لمعنى العلاقات الاجتماعية التي يصعب اختزالها في مجال الحتميات العمياء التي تسير العالم الطبيعي ، فالعولمة لا يمكنها إلا أن تؤيد هذه المواقف التي تسقط الاختلافات الجوهرية بين المجتمعات وتلغي الفروق الثقافية والدينية التي تشكل جوهر الوجود الإنساني ، لأن هذه المعاني تعيق مشاريعها العابرة للقارات وتضيق على شركاتها متعددة الجنسيات التي تعمل على تكريس (التسطيح الاجتماعي) لكي تكتسح شركاتها العالم بأسره ، وبذلك لا تجد شركة (ماكدونالدز) مثلا أي عناء لكي تغرس مطاعمها للوجبات السريعة في كل مكان طالما أن أسلوب الاستهلاك الغذائي أصبح نمطيا لا فرق فيه بين نيويورك والرياض . إنها إذن ثقافة العرض والطلب ، أي الثقافة التي تريدنا مجتمعات استهلاكية ، وذلك بعدما تتمكن من أن تقتل فينا كل معاني الوعي بالذات والنقد والتفكير الذي يتميز به الفكر الفلسفي الحر ، ولعل هذا ما دفع جان زيغلر في كتابه "سادة العالم الجدد" :إلى القول (أينما يسيطر أتباع الإمبراطورية كأسياد يختفي أي أثر للحياة الاجتماعية مع كل ما يحمله ذلك من نتائج سلبية) (زيغلر. ج : 2003 : 280) ويقصد بالإمبراطورية هيمنة النيوليبرالية الأمريكية على العالم أما

مدلول الاختفاء فهو زوال الخصوصيات التي تميز المجتمعات عن بعضها البعض .

أما التاريخ الذي أعلن (فوكوياما) نهايته فهي محاولة منه لجعل الدولة الليبرالية الحديثة النموذج السياسي الأخير الذي لا يمكن الوصول إلى ما هو أسمى منه ، على أعتبار أنه لولا هذا النمط السياسي المتميز لما تمكن العالم من التمتع بحسنات النظام الاقتصادي الليبرالي الذي جعل من العالم قرية واحدة محطما بذلك كل الحدود والقيود التي تتيح للإنسانية العيش بشكل مشترك . وبنهاية التاريخ تتحقق نهاية الأيديولوجيا ، وهي إشارة إلى أن العلم والمعرفة العلمية قد أنتصرا على الأيديولوجيا باعتبارها معرفة قيمية ومتحيزة وتفتقر إلى الموضوعية ، فالحاجة إلى الأيديولوجية تزول في المجتمع الاستهلاكي الذي يمكن إشباع حاجياته في إطار تطوير آليات النظام الاقتصادي ودخول الراسمالية مرحلة الإنتاج والاستهلاك العالميين ، لأنه بمجرد تحقيق الاكتفاء الإقتصادي تزول كل المظاهر الاحتجاجية للشعوب وبالتالي لا يجد السياسيون الوسيلة لنشر أفكارهم (الانتهازية).

إلا أن الواقع لا يؤكد ما يدعيه أنصار النزعة العولمية ففكرة النهايات لا تعكس حقيقة الأمور ، وهذا ما دفع محمد سبيلا إلى التساؤل بقوله : (ما سر هذه القيامة الفكرية التي تكاد تشكل اليوم إحدى ميثولوجيات العصر الذي تصدح فيه طيور النهاية بأغاريدها المتعددة الألوان والأنغام ، نكاد نشاهد العكس فلا الفلسفة انتهت ولا الإيديولوجيات انقرضت ولا الميتافيزيقا أفلست ولا التاريخ أفل ظله ولا الإنسان اختفى .) (سبيلا ، م 2006 :64) .

وبهذا فالعولمة التي أحست بخطورة الفكر الحر الذي تتيحه الفلسفة عمدت إلى مواجهة كل الأصوات المناهضة لها ، ولكنها لا تتعامل مع

الفلسفة كإنتاج فكري تقارعه بالحجة والدليل وتسعي إلى انتقاده بالوسائل المعرفية التي تتقنها الفلسفة بدورها وتملك وسائل وأدوات الرد عليها ، بل تسعى إلى تقويض الأسس التي تستند إليها الفلسفة و يستند إليها كل فكر حر وأصيل إنها تستهدف الإنسان ذاته وتهدد كيانه عندما تسعى إلى تكريس ظاهرة (التسطيح الثقافي) كما يشير إليه عابد الجابري في حديثه عن العولمة التي في رأيه (تتولى القيامَ بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافةٌ جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلا: ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي (الإشهار التجاري) والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية) وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها "ثقافة الاختراق" التي تقدمها العولمة بديلا للصراع الإيديولوجي.) (الجابري م.ع : 1998 : 128) وبذلك فإن العولمة تسعى إلى اختزال كل الموروث الثقافي في الحضارة النيوليبرالية وما أنتجته من فكر إقصائي عبر عنه فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الذي بالغ في مدح النظام الرأسمالي معتبرا أنه النمط الوحيد الذي جسد الديمقراطية بشكل عملي ، مستبعدا احتمال وجود منظومة فكرية جديدة يمكنها أن تحقق ما حققه النموذج الاقتصادي الغربي ، وهذا ما يعكس بشكل واضح أن الفكر العولمي بعيد كل البعد عن الطرح المنهجي الذي قدمته الفلسفة عبر التاريخ والمتمثل في إمكانية الاختلاف واحترامه بل وتشجيعه حتى بين الأستاذ وتلميذه كما وقع بين أفلاطون وأرسطو أو بين الغزالي وابن رشد وغيرهم ، ذلك أن العولمة بفكرها الاختزالي والإقصائي والتسطيحي تمثل ضربا من الهيمنة والطغيان كما أشار إليه جان زيغلر بقوله **(أينما يسيطر أتباع الإمبراطورية كأسياد يختفي أي أثر للحياة**

الاجتماعية مع كل ما يحمله ذلك من نتائج سلبية) (زيغلر ،ج 2003 : 8)ويقصد بالنتائج السلبية تلك التي تهدد الجوانب الفكرية والثقافية للمجتمعات الشرقية ، والتي تعتبر مهدا للحضارات والفلسفات القديمة . كما أن العولمة بتركيزها على الجوانب المادية والاقتصادية تشكل خطرا واضحا على المقومات الروحية والأخلاقية للمجتمعات ، مما يطرح تحديا آخر أمام الفكر الفلسفي المشبع بهذه المعاني ، والذي عبرت عنه كل النماذج الفلسفية عبر التاريخ من خلال التركيز على المقومات الإنسانية العميقة ، خاصة في المجالات الأخلاقية والميتافيزيقية التي لا تعير لها العولمة اهتماما كبيرا بل وتعمل على تقويضها بكل الوسائل حتى تفرغ المجتمعات من كل أسباب المقاومة والمناعة ، فيسهل عليها تحقيق سياستها الاختراقية التي تنطلق من قناعة واضحة وهي أنه لا مجال لتحقيق أي توسع تجاري واقتصادي من دون تحقيق التوسع الثقافي للنمط الاستهلاكي الغربي ولعل هذا ما دفع بجاك لانج وزير الثقافة الفرنسي إلى إطلاق صرخة على طريقة الاشتراكيين " **يا ثقافات العالم اتحدي ضد الغزو الثقافي الأمريكي**"[3] (عوكل ،ط. 2002:17) مما يفهم معه أن الهجمة العولمية لا تتجه نحو الشعوب النامية فحسب بل حتى الشعوب الأوروبية وهذا دليل على أن العولمة تشكل تهديدا حقيقيا على كافة الشعوب التي تحرص على حماية ثقافاتها الأصيلة ، ويعز عليها الانسياق وراء التيار العولمي بشكل عفوي وتلقائي ، وما تأسيس الإتحاد الأوروبي إلا دليل على أن أوروبا حريصة على حماية تميزها الإيديولوجي والفكري بالرغم من نقاط التشابه الكبيرة التي تجمعها مع أمريكا ومؤسساتها العولمية وشركاتها العابرة للقارات ، وهذا يكشف لنا بشكل واضح أن أوروبا التي تحرص على مواكبة التطور لا تريد

أن تترك المبادرة بيد العولمة المأمركة التي تطورت في بيئة ثقافية تختلف عن تلك التي تطورت فيها أوروبا الحديثة إن الدول الأوروبية حريصة كل الحرص حتى تحت قبة البرلمان الأوروبي المشترك أن تحافظ على خصوصياتها الثقافية ومرجعياتها الفلسفية والتاريخية التي تبقى الضمان الوحيد للحفاظ على سيادتها وشعورها بوحدتها الترابية والجغرافية وحتى الإثنية . وهذا يدل على أن الفلسفة بما تحمله من روح نقدية وقواعد منطقية تبقى هي الملاذ الأخير الذي تلجأ إليه الشعوب عندما تريد الحفاظ على كيانها كوحدة بشرية متجانسة داخليا ومختلفة عن بعضها البعض خارجيا ، فالفيلسوف يشكل روح مجتمعه وضميره الحي الذي يعبر عنه وهذا ما يجعلنا ننسب كل فلسفة لموطنها وقوميتها بداية من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ووصولا للفلسفة الأوروبية التي تشكلت ضمن مذاهب ومدارس وتيارات تنسب في نشأتها وموطنها وتطورها لدول وشعوب محددة كالفلسفة الألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها وكل هذا التنوع لا يلغي و لا يمنع أن تلتقي هذه التجارب الفلسفية في مستوى من المستويات للتلاقح فيما بينها مشكلة مواقف تتجاوز المجال المحلي الضيق لتصل إلى المستوى الإنساني الشامل . ولو أن فيلسوفا مثل هيدغر عاصر العولمة لما فكر لحظة واحدة في الاعتراف بنهاية الفلسفة كما فعل في بحث ألقاه بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد الفيلسوف كيركغارد وكان عنوانه "نهاية الفلسفة ووظيفة التفكير" يعتبر فيه أن مهمة الفلسفة قد انتهت بعدما استلمت العلوم الاجتماعية المشعل منها (ياسين ،س 2002: 227) ، ذلك أن هذا البحث نشر سنة 1966 أي قبل سقوط جدار برلين وظهور القطبية الأحادية التي غيرت بشكل جذري الخارطة السياسية للعالم أي أنه بحث صدر قبل ظهور العولمة . كما أن المواجهة

النوعية التي ترفعها الفلسفة ضد العولمة تحمل طابعا منهجيا يكمن في بناء النتائج الصحيحة على قواعد وأسس ضرورية وسليمة بعيدا عن المصادرات الخاطئة التي تحمل مغالطات خطيرة تترتب عنها نتائج وخيمة على الحرية والسلم العالمي ففكرة محور الشر التي لوحت بها الإدارة الأمريكية أثبتت التطورات الأخيرة أنها لم تكن سوى مناورات استخباراتية للإدارة الأمريكية بررت من خلالها غزو العراق وسرقة ثرواته الكبيرة ، بدعوى محاربة الإرهاب والقضاء على أسلحة الدمار الشامل، وهي كلها مصطلحات طورها " المحافظون الجدد " المعروفون بفكرهم الصهيوني الإجرامي الذي تبلور في العديد من الجامعات الأمريكية علي يد المفكر (جون رولس) والذي تبرز العدالة في نظره وكأنها توفر الأساس للنظام السياسي الليبرالي ،أكثر مما توفره الحرية والمساواة ، هذه الفرضية استمدت ظهورها من المبادئ الأولى للنظرية الليبرالية في العدالة ، والتي تحدث عنها جون رولس في كتابه (نظرية العدالة)الصادر 1971 ، حيث كان رولس مهتما إلى حد بعيد ، بتنظيم جماعة ليبرالية خاصة تنظر لمفهوم العدالة انطلاقا من مصالحها الشخصية وتعمل على تطويرها في ظل " سياسة الأمر الواقع " أي في ظل تكريس الهيمنة الليبرالية . فمهمة الفلسفة إذا هي فضح هذه المغالطات التي تهدد أمن العالم وسلامة البشرية ، لأن الفلسفة لا يمكنها إلا أن تحمل فكرا إنسانيا يسعى دوما إلى الخير والحق والفضيلة . وعلى هذا الأساس فالعولمة لا يناسبها بقاء الفلسفة وانتشارها كوعي ونقد ومقاومة ، ولعل هذا ما يفسر دخول العولمة في صراع ضد كل التيارات التحررية عبر العالم بداية من التيارات اليسارية إلى التيارات الإسلامية المناهضة للغطرسة الأمريكية ، وهذا ما يشكل جانبا آخر من جوانب الصراع الذي تقوده أمريكا ضد العالم الإسلامي

من خلال وصف كل الحركات الإسلامية المقاومة كحركة حماس وحزب الله وطالبان والمقاومة في الشيشان بأنها حركات إرهابية في حين تعطي المشروعية للجرائم الصهيونية وتتستر عليها بل وتدعمها ماديا ومعنويا ، كما توفر كافة الوسائل في الترويج لفكرة معاداة السامية التي استغلتها إسرائيل بشكل كبير في محاربة مفكرين وفلاسفة كرجاء غارودي وغيرهم اللذين انتقدوا مسألة المحرقة اليهودية وكشفوا مبالغة اليهود وتضخيمهم لها .

الخاتمة:

إن من أكبر جرائم العولمة هي أنها جعلت العلم في مواجهة الفلسفة ، وذلك من خلال التوظيف السياسي والاقتصادي للمناهج الوضعية التي أفرغت العلم من محتواه الإنساني وأقحمته في دراسة مضامين خاصة بالإنسان باستعمال أساليب مفرطة في المادية والنزعة التحليلية التي مزقت الظواهر الإنسانية وحولتها إلى وحدات كمية خالية من الروح ، وبعيدة كل البعد عن طبيعتها الواعية ، كما أشاعت روحا من التشاؤم بتبني فكرة النهايات التي تتناقض مع مبدأ التطور ، الذي يعتبر المحفز الأساسي لتطور الشعوب وازدهارها . كما تشكل تنكرا واضحا لمبادئ الحداثة التي أعادت للإنسان اعتباره الكامل من خلال أشاعة معاني الحرية والعدالة والعقلانية .

أننا أمام تحدي كبير يكمن في ضرورة المراهنة على الفكر الفلسفي الحر وإشاعته بشكل منهجي منظم حتى نتيح له الاضطلاع بدوره الريادي في تنوير الشعوب وحمايتها من الاستلاب والهيمنة العولمية ، كما أننا في حاجة ماسة إلى تشجيع النزعة العلمية وتطوير مناهجها وإشاعة روحها الموضوعية بالشكل المناسب الذي يساعدها على تفادي الأخطاء التي وقع فيها العلم كما هو الحال في توفير الأسس العلمية لتفجير القنبلة الذرية على اليابان ، والتي

الأستاذ : عبد الرحمن بن شريط

شكلت وصمة عار في جبين الباحثين الذين ساهموا في تطوير هذا المشروع الدموي ، ولعل نبرة الندم التي عبر عنها " آينشتاين" بقوله " لا يجب علينا أن ننسى الإنسانية بين المعادلات الرياضية والقوانين العلمية " لدليل واضح على خطورة العلم الخالي من القيم الإنسانية والمعاني النبيلة التي يجب عليه التمسك بها في كل المعارك التي يخوضها الفكر الحر في مواجهة مشكلة الاحتباس الحراري والتلوث البيئي وغيرها من الأخطار التي تهدد البشرية.

المراجع:

1- محمد سبيلا : زمن العولمة ، دار توبقال للنشر الطبعة الأولى 2006

2-عبد الله العبادي : مجلة العرب الأسبوعي عدد يوم 7 جوان 2008/

3 -محمد عابد الجابري :(العولمة والهوية الثقافية) ورد في مجلة المستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت عدد 228 فبراير 1998

4-جان زيغلر: سادة العالم الجدد ،مركز دراسات الوحدة العربية ترجمة محمد زكرياء إسماعيل ط1 بيروت 2003

5-طلال عوكل ، الرؤية الأمريكية للمنطقة والعالم ، مجلة رؤية عدد 33 /9.7. 2002 غزة فلسطين

6 -السيد ياسين ، العولمة والعالمية دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية أغسطس 2002

7- René Descartes , Discours de la méthode , collection 10/18 paris 1973